رمزية الرّحلة في خطابات المتصّوفة
الإسرا إلى مقام الأسرى أو كتاب المعراج لابن عربي "نموذجا"

د. حكيمة بوشلالق
أ. سمراء لبصير
جامعة المسيلة

الملخص:

تعد الرحلة الصوفية نحو المطلق أساس التجربة الصوفية، فهي المقابل الرمزي لتلك التجربة، وقد أطلق الصوفية قديما وحديثا عدة اصطلاحات على هذه الرحلة، ومن بينها:

الطريق الصوفي، السفر، العروج، الاغتراب، السياحة.....إلخ

وهذه الرحلة المتخيلة تستند في طريقة نقلها على عناصر الحكي والتشويق، فهي أشبه ما تكون بنص سردي لها مقاماتها وأحوالها، كما أنها تختلف من صوفي لآخر، وبدايتها لدى الصوفية ترتبط بالسلوك الصوفي، والتجرد من كل ما يربط الذات السالكة بالدنيا وملذاتها، والنفس وشهواتها، ووساوسها، وقد سمي الصوفية قديما بالغرباء لسفرهم هذا، ورحلتهم نحو الذات المطلقة، إذ لا ينال الصوفي من المعرفة إلا بقدر غربته عن نفسه، والقصد من وراء تلك الغربة هو تقليص حظ النفس من الدنيا، وخلق القطيعة مع الذات الشهوانية، حتى تسمو الروح نحو المعارج وهي مجردة من صفاتها.

وتتم هذه الرحلة وفق خطاب سردي ترد فيه الأمكنة والأزمنة والشخصيات بمنظور متخيل، ففي رحلة ابن عربي الموسومة بـ : رحلة الإسرا إلى المقام الأسرى أو كتاب المعراج ، حيث نجده قد استلهم رحلته من حادثة الإسراء والمعراج للرسول صلى الله عليه وسلم بكل تفاصيلها.

الرحلة في مفهومها العام تعني فعل الانتقال من مكان إلى آخر، حيث يصور الكاتب ما جرى له من أحداث، وما صادفه من أمور أثناء عملية التنقل والترحال، وهي فعل إنساني عرف منذ القدم، ويندرج تحت هذا المسمى- أدب الرحلة – كم كبير من الكتابات رغم الاختلاف في الأسلوب والمنهج وحتى الغرض من الكتابة والجمهور المستهدف منها، إلا أنها تشترك جميعا في كونها تصف رحلة ما قام بها شخص ما إلى مكان ما، ومن ذلك الرحالات والقصص الخيالية كقصص السندباد البحري الذي أصبح رمزا للرجل المدمن على الرحلة ،ومن ذلك أيضا القصص الأدبية الخيالية كقصة ابن طفيل ورسالة الغفران للمعري، ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد، ومنطق الطير للعطار، والرحلات الصوفية العروجية كرحلة الإسرا إلى مقام الأسرى لابن عربي، وهي موضوع حديثنا علما أن هذه الرحلات تتم «وفق خطاب سردي ترد فيه الأمكنة والأزمنة والشخصيات من منظور متخيل ».[1]

وتعد الرحلة عنصرا أساسيا في التجربة الصوفية، وترد تحت مسميات عديدة مثل: الطريق، السفر، العروج الاغتراب، السياحة وهي تحمل بعدين، بعدا ماديا؛ أي الرحلة باعتبارها حركة تنقل في إطار زمانيٍ ومكانيٍ معين، أو بعبارة أخرى فعل التنقل والسفر بين البلدان والأمصار لتحقيق غاية معينة كطلب العلم أو زيارة الأماكن

المقدسة، وبعد روحي معنوي أي الرحلة كرمز من رموز اللغة الصوفية المشفرة أو كمذهب من مذاهب المتصوفة فهي بذلك _ الرحلة الروحية _ رمز دلالي رحب المجال يكشف لنا عن العلاقة القائمة بين الواقعي والتخيلي و بين الإيمان والفعل وبين رحلة البدن ورحلة القلب، يقوم الصوفي " السالك أو المريد " بهذه الحركة لتصحيح موقفه اتجاه الله ومحاولة التعرف على الذات الإلهية، فيكابد في سبيل ذلك مجموعة من الأحوال والمقامات كالخوف والرجاء والمراقبة والذكر، والتقوى والزهد والابتعاد عن الماديات والملذات، فهي رحلة داخلية تتم داخل ذات السالك أو المريد وبالأحرى هي رحلة مرتبطة بالرؤيا « هذه الرحلة متخيلة تستند في طريقة نقلها على عناصر الحكي والتشويق فهي أشبه ما تكون بنص سردي لها مقاماتها وأحوالها كما أنها تختلف من صوفي إلى آخر، وبدايتها لدى الصوفية بالسلوك الصوفي والتجرد من كل ما يربط الذات السالكة بالدنيا وملذاتها، والنفس وشهواتها ووساوسها، وقد سمي الصوفية قديما بالغرباء لسفرهم هذا، ورحلتهم في الذات المطلقة، إذ لا ينال الصوفي من المعرفة إلا بقدر غربته عن نفسه... حتى تسمو الروح نحو المعارج، وهي مجردة من صفاتها».[2]

ولعل في تجربة ابن عربي الصوفية ما يجسد لنا هذه المعاني والدلالات لفعل الرحلة في بعدها الروحي حيث تغلبت فكرة السفر على فكره، ويظهر ذلك بشكل كبير في مؤلفاته التي حملت هذا المصطلح وجسدت هذا المعنى مثل " الفتوحات المكية "، " رسالة الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار " وكتاب " الإسفار عن نتائج الأسفار " وكتاب " الإسراء إلى مقام الأسرى" فمن خلال هذه المؤلفات تظهر لنا فلسفة العربي حول مفهوم السفر وأهمته حيث يجعله فعلا مطلقا يشمل العالم بأسره، والعالم عنده هو الإنسان الذي تتجسد فيه كل أنواع السفر « فخروجه إلى الوجود سفر، ونموه الجسدي سفر، جريان دمه في العروق سفر، حركة أنفاسه سفر، كلامه دائم سفر، حروف كلامه عند خروجها من أعماق النفس وأفكاره دائمة، السفر بين المحمود والمذموم، وفي المتنفس سفر للأنفاس، وفي الرؤيا سفر للأبصار و المبصرات، و في تعبير الرؤيا سفر و عبور من عالم إلى عالم، وأما عوالم الخيال فكلها أسفار في أسفار، ثم إن موت الإنسان سفر أيضا من العالم المحدود إلى العالم المطلق، فالإنسان إذن في سفر دائم قبل أن يخلق و حياته عبارة عن سفر من الميلاد إلى القبر"[3]

ويذهب ابن عربي أبعد من ذلك فيكشف لنا عن أربعة عشر نوعا للسفر، وبأن مفهومه متعلق بكل شيء، وربط بينه وبين مقامات و أحوال الصوفية، و بينه وبين الأنبياء، فجعل القرآن الكريم سفرا من العالم العلوي إلى العالم الدنيوي، وربط جملة من الأسفار بالأنبياء في كتابه "فصوص الحكم " كسفر النجاة للنبي نوح عليه السلام و سفر الهداية

لإبراهيم عليه السلام، أما سفر المكر و الابتلاء فقد خص به يعقوب و يوسف عليهما السلام .

و قد جاء مقدمة كتابه " الإسراء إلى مقام الأسرى " كتجربة تطبيقية لجملة نظرياته السابقة حول مفهوم السفر الروحي و قد أعرب في مقدمة كتابه عن ذلك قائلا :«.. إني قصدت معاشر الصوفية أهل المعارج العقلية و المقامات الروحية، والأسرار الإلهية، و المراتب العقلية المقدسة، في هذا الكتاب المنظم الأبواب المترجم بكتاب الإسرا إلى مقام الأسرى ، اختصار ترتيب الرحلة من العالم الدنيوي إلى الموقف الأزلي».[4]

ويعد المعراج الصوفي محاكاة للمعراج النبوي الذي "حرك النشاط الصوفي، فاندفع كتابهم لاستعارة ألفاظه ومفرداته من جهة، ومن جهة ثانية حفلت رؤى بعضهم المنامية بمعارج إلى السماء السبع فما فوقها ".[5]

ولقد وظف الصوفية هذا المصطلح بكثرة في مؤلفاتهم، وقد حمل معان ومقاصد كثيرة أهمها معنى " الترقي والتدرج " في تطهير النفس ولقد لخص ابن عربي مقاصد هذا المصطلح في الفتوحات بقوله:« فكل نظر إلى الكون ممن كان فهو نزول، وكل نظر إلى الحق ممن كان فهو عروج».[6]

كما خصصوا له مؤلفات كاملة، كالمؤلف الذي بين أيدينا وكذلك مؤلف "معارج القدس في مدارج معرفة النفس " للإمام الغزالي وكتاب " معراج السالكين" لأحمد بن عجينة، " معراج التشوف إلى حقائق التصوف" وحافظت هذه اللفظة على مضمونها ومدلولها العام في فكرة الصعود والحركة «ومن هنا نجد أدب الرحلات ينافس المعراج الصوفي بمؤلفات توسعت في تصوير الجنة والجحيم، كرسالة الغفران للمعري، وأراضي ومواطن الأحلام كما في رسالة التوابع والزوابع لابن الشهيد الأندلسي ولكننا نتجاوز هذه الآداب، ونتجاوز كذلك شبيهها في الأعمال التي نظمت في الثقافة الإسلامية شعرا ونثرا كقصيدة سينائي "سير العباد إلى الميعاد " لنهتم فقط بهذه النصوص التي تروي لنا قصة عروج من دون أن تتصل إلا من حيث الشكل بأدب الرحلات».[7]

والإسراء هو المسافة التي قطعها النبي (ص) راكبا البراق متجها من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس، رفقة جبريل عليه السلام ليلا، تسريه له نتيجة الظروف المؤلمة والحزن الشديد الذي أصابه إثر فقده الأحباء، وهي رحلة روحية بدنية برهن النبي على صدقها بمجموعة الأدلة الحسية التي قدمها للمشركين حين وصف لهم المسجد الأقصى وهم على علم بأنه لم يراه، وكذلك خبر القافلة التي كان موعد وصولها في الغد.

أما بالنسبة للمتصوفة فعروجهم هو عروج روحي وكان أول معراج صوفي واضح الملامح ظاهر المعالم هو ما رواه أبو يزيد البسطامي حيث قال: « رأيت في المنام مما أتاني عرجت إلى السموات قاصدا إلى الله »[8]، وقد اختلف معراج البسطامي عن معراج

النبي (ص) في كون معراج هذا الأخير معراج تكريم وتشريف وتسرية في حين كان معراج البسطامي معراج امتحان فكل ما وصل إلى

أنا القرآن والسبع المثاني و روح الروح لا روح الأواني
فؤادي عند معلومي مقيم يناجيه وعندكم لساني
وأسرار تراءت مبهمات مستترة بروح المعاني
فمن فهم الإشارة فاليصنها و إلا سيقتل بالسنان
كحلاج المحبة إذ له تبدت شمس الحقيقة بالتداني

سماء عرضت عليه العطايا مغرية إياه لترك مواصلة التوجه والقصد فكان في كل مرة يرفض ويقول «مرادي غير ما تعرض عليّ».[9] فلا يزال كذلك حتى ينجح في الامتحان فتستقبله روح النبي (ص) وتقرئه السلام لأمته، وتوصيه بالدعوة لله عزوجل.

أما بالنسبة لابن عربي فقد كان عروجه بمثابة رحلة روحية قلبية وقد وصفها بقوله « خرجت من بلاد الأندلس أريد بيت المقدس، وقد اتخذت الإسلام جوادا والمجاهدة مهادا والتوكل زادا، وسرت على سواء الطريق أبحث عن أهل الوجود والتحقيق، رجاء أن ابرز في صدر ذلك الفريق».[10]

فهي كما يعلن عنها رحلة خيالية يمكن تقسيمها إلى ثلاث وحدات هي عبارة عن مراحل بمثابة التجارب التي سلكها حتى الوصول....[11].

المرحلة الأولى كانت بمثابة مرحلة التأهب والاستعداد للقيام بالرحلة، وذلك بعد توافر جملة من العناصر المعينة على القيام بذلك، وتمثلت في: الإسلام، المجاهدة، التوكل، إضافة إلى التقائه بعناصر إرشادية تدله وترشده إلى سواء السبيل وقد تمثلت في الفتى الروحاني والعين. فالتقيت بالجدول المعين وينبوع أرين، فتى روحاني الذات، رباني الصفات، فقلت له ما وراءك ياعصام، قال : وجود ليس له انصرام، فقلت من اين وضح الراكب ؟ قال : من رأس عين الحاجب، .... لكن يعرج بك سمائي ثم انشدني و حيرني [12]:

أما العنصر الإرشادي الثاني فتمثل في العين، عين اليقين قال السالك:" فنادتني تلك العين، أيها الفتى إلى أين ؟ فقلت إلي الأمير قالت عليك بخدمة الكتاب الوزير مما، هما يدلانك على مرادك، ترى حقيقة اعتقادك" [13] إذا بتمكن السالك في هذه المرحلة وبمعية الفتي والعين من التخلص من مجموع الصفات المادية والتزود بحملة من التوجهات والإرشادات التي تمكنه من الانعتاق من كل ما يربطه بالعالم المادي يمكن اعتبار هذه المتوالية بمثابة الوظائف الأساسية التي تمكن بفضلها السالك من التحول الروحي و المعرفي و اكتساب الكفاءة .... فالتخلص من العلائق وظائف أساسية، بدونها لا يتسنى لمتوالية الارتقاء عبر السموات أن تتم، لذلك اعتبرناها برنامجا سرديا

استعمالي تمارس فيه الذات، فعل التحول والحالة في الوقت نفسه، لأنها ما إن تتجرد حتى ترتقي إلى حالة أفضل مما كانت عليه وقد ساعدها في ذلك كل من التقى بها، مثل القرآن وعين اليقين ".[14]

أما المرحلة الثانية في رحلة العروج لابن العربي فتبدأ بعد أن جاء الرسول واحتجبت الذات، وبقيت الصفات يقول السالك « جاءني رسول التوفيق ليهديني سواء الطريق، ومعه براق الإخلاص، ... وشق صدري بسكين السكينة وقال لي تأهب لارتقاء المكينة ».[15]

وهذه المرحلة هي مرحلة العروج عبر السموات رفقة الدليل ابتداء من السماء الأولى إلى السابعة، واصفا لنا ما يحدث له في كل سماء، وما يعرض له من أحداث، ثم الوصول إلى سدرة المنتهى التي قال فيها « لا يستطيع أحد أن ينعتها وإن كان هذا، فكيف يصف أحد حقيقتها ».[16]

ثم الوصول إلى الملأ الأعلى « وامتطيت متون الرفارف وطرت في جو المعارف، فإذا هي مائة رفرف تدعى بالملأ الأعلى الأشراف».[17]

ويواصل السالك الارتقاء والفناء حتى ينزل في حضرة لوح التوحيد وهو كما يفسره بالعلم الرباني، فرأى ما لا عين رأت وإذن سمعت ولا خطر على قلب بشر كمقامات أهل الريحان.

أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة الاتصال والمخاطبة والمناجاة بالحضرة الإلهية « عبدي أنت حمدي وحامل أمانتي وعهدي أنت طولي وعرضي وخليفتي في أرضي والقائم بقسطاس حقي والمبعوث إلى جميع خلقي».[18]

وهنا يستفسر السالك عن جملة المعارف فيحصل له الكشف عنها كسؤاله عن معجزات الأنبياء والرسل، ففي هذه المرحلة يتم الإسرا، من العالم الكوني إلى العالم الأزلي و الإسرا هو غاية معرفية علمية، إذ ينال ابن العربي مراده في معرفة علم الظاهر والباطن، فيرث النبوة وهو ما كشفه في بداية عروجه:« اعلم أنك قادم على ربك ليكشف لك عن سر قلبك وينبهك على أسرار كتابه، ويعطيك مفتاح قفل بابه ليكمل ميراثك ويصح انبعاثك، وهو حظك من أوحى إلى عبده».[19]

وبهذا يكون ابن عربي على حد زعمه قد حاز على السر الذي يصله بالذات الإلهية متى شاء، وذلك بعد أن توافرت فيه جملة من الشروط والمواصفات، كنقاء القلب والسريرة والتجرد من كل الماديات .

- الهوامش:

[1]- محمد كعوان : التأويل وخطاب الرمز، قراءة في الخطاب الشعري الصوفي العربي المعاصر، دار بهاء الدين للنشر، الجزائر،ط1، 1430هـ، 2009م، ص 345.

[2]- المرجع نفسه، ص 345.

[3]- ينظر: ساعد خميسي : ابن المساهم العائد، منشورات الاختلاف الجزائر، ص1، 1431 هـ،2010م، ص 133

[4]- ابن عربي : كتابه " الاسرا إلى مقام الأسرى": جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدرة أباد الدكن، 1367هـ، 1248م، ص2

[5]- ابن عربي : كتابه " الاسرا إلى مقام الأسرى"، شرح تحقق، د سعاد الحكيم، أستاذة علم التصوف في الجامعة اللبنانية، دراسة عن المعراج النبوي و المعراج الصوفي، دندرة للطباعة و النشر، ط1 ،1408هـ، 1988م، 28

[6]- المرجع نفسه، ص 29.

[7]- المرجع نفسه، ص 29 .

[8]- المرجع نفسه، ص30.

[9]- المرجع نفسه، ص 30.

[10]- المرجع نفيه، ص57.

[11]- المرجع نفسه، ص 57.

[12]- المرجع نفسه، ص58

[13]- المرجع نفسه 61.

[14]- أمنة بلعي : تحليل الخطاب الصوفي، ص 242.

[15]- ابن عربي: الاسرا إلى مقام الأسرى، ص09.

[16]- المرجع نفسه، ص34.

[17]- المرجع نفسه، ص 45.

[18]- المرجع نفسه، ص58

قائمة المصادر والمراجع :

1- ابن عربي: الإسرا إلى مقام الأسرى، شرح وتحقيق:د. سعاد الحكيم : استاذة في علم التصوف في الجامعة اللبنانية، دراسة عن المعراج النبوي والمعراج الصوفي، دندرة للطباعة والنشر، ط1، 1408هـ، 1988م.

2. محمد كعوان: التأويل وخطاب الرمز، قراءة في الخطاب الشعري الصوفي العربي المعاصر، دار بهاء الدين الجزائر، ط1، 1430هـ، 2009م.

3- ساعد خميسي : ابن عربي المسافر العائد، منشورات الاختلاف الجزائر، ط1، 1431هـ، 2010م.

4- آمنة بلعلى: تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1431هـ، 2010م.

نفسه، ص 26.